شرعة ومنهاج

عبد العزيز بن مرزوق الطريفي

٥٩

منهج السلف
حقيقته وفضله

لقاءات علمية مرئية (مفرَّغة)

الفهرس

منهج السلف حقيقته وفضله[1] ١

- مفهوم السلف ٢
- مفهوم المنهج ٣
- تأصيل مصطلح السلف ٤
- السلف في الصحابة والتابعين ٥
- فضل الصحابة والتابعين ٧
- خصائص وخصال الصحابة ٩
- الفرقة الناجية والفرق المتوعدة بالعذاب ١١
- الفرق بين التأصيل والتطبيق ١٣
- ضرب التأصيل بأخطاء التطبيق ١٤
- الفرق بين مدرسة الإصلاح ومدرسة التربص بالأخطاء ١٥

١) رابط الحلقة
https://www.youtube.com/watch?v=T6rvtIjvecI

مفهوم السلف

السلف من جهة معناه هم الذين مضوا من هذه الأمة وكانوا للنبي ﷺ تَبَعٌ له فهم سلفٌ لمن جاء بعدهم وتبعٌ للنبي ﷺ ، والسلف إذا أُطلق فالمراد بهم الصحابة ويليهم التابعون ويليهم أتباع التابعين ، ويتفق العلماء على فضل الصحابة أنهم هم رأس السلف عند الإطلاق وقد جاء تفضيلهم في كثير من الأحاديث كما جاء عن النبي ﷺ من حديث عبد الله بن مسعود (قَالَ خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ)[٢] وكذلك جاء عن أبي هريرة عند الإمام مسلم بهذا المعنى وهذا من الأحاديث المستفيضة فهم سلف لمن جاء بعدهم وخلفٌ لرسول الله ﷺ ، فالمقصود بالسلف هم الصدر الأول ويتسع الصدر الأول لثلاث قرون ويضيق للقرن الأول .

يقول الله جلاله ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾(التوبة : ١٠٠) فالمقصود بهم هم الصدر الأول والصدر الأول يتسع لثلاث قرون ويضيق للقرن الأول ، والقرن الأول هم صحابة النبي ﷺ وقد كانوا ينظرون إلى من كان قبلهم على أنهم هم السابقون ممن أمن مع النبي ﷺ ابتداءً في مكة أو هاجر معه ﷺ بعد ذلك ; فالصحابة على مراتب فيما بينهم كما قال الله جلاله ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ ﴾ فالسابقون الأولون يختلفون عمن جاء بعدهم وأعلى السابقين هو أبو بكر الصديق ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان ثم علي بن أبي طالب عليهم رضوان الله تعالى ثم بقية العشرة المبشرين ثم بقية السابقين ممن قاتل مع النبي ﷺ في غزوة بدر الذين يسمون البدريون والأحديون ثم من بايع النبي ﷺ وهكذا .

فكل طبقة لها فضل يختلف عن فضل غيره ، والمتقدمون جمهورهم على حق ; لهذا جمهور السابقين على حق وقلما يختلفون ، وجمهور من جاء بعدهم على حق وقلما يختلفون .. وهكذا يتسع الخلاف شيئًا فشيء في الأمة بسبب جهل ما كان عليه السلف فيرجع في النص للفهم والنص منه ما هو عام وخاص ناسخ ومنسوخ مقيد ومطلق وغيرها من الأخطاء التي تأتي على النصوص .

---

٢) رواه البخاري (٢٥٣٠) ومسلم (٤٧٠٦) من حديث عبد الله بن مسعود.

مفهوم المنهج

المراد بالمنهج هو الطريقة والمسلك فكما قال الله تعالى ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة :٤٨) والمنهاج هو الذي يسير فيه الإنسان ، والسبيل كما قال الله تعالى ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ (يوسف :١٠٨) هذا الإتباع إشارة إلى أن ثمة تابع وثمة متبوع فالسائرون على الطريق هم الأسلاف والتابعون للنبي ﷺ ، والمسير الذي يسير عليه المتبوع والتابع هو ذلك المنهج ، فلا يمكن للإنسان أن يسير على غير هدي النبي ﷺ ثم يظن أنه يصل لمحمد ﷺ ، نعم قد لا يمر بواحد من الصحابة أو اثنين أو ثلاثة لما جبلوا عليه من الخطأ الفطري الذي فطر الله الناس عليه لا من جهة تعمد الضلال والانحراف فجمهور الصحابة على هذا الطريق وأما الخطأ لديهم من غير قصد وفي أشياء يسيرة وهذا على من جاء من بعد الصحابة من باب أولى .

ويجب علينا أن نفرق بين ما عليه جمهور الصحابة وبين ما عليه آحادهم وكذلك نفرق بين كثرة فاضلة وكثرة مفضولة وكذلك نفرق بين قلة فاضلة وقلة مفضولة ، فالمنهج من جهة حقيقته ليس لأحد أن يقول أنهم على مرتبة واحدة فينتقي منهم الإنسان ما شاء فهذا من الخطأ .

والنبي ﷺ قد أقر بفضل فلان على فلان كفضل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب عليهم رضوان الله تعالى ، وليس الأمر بالكثرة فلا أثر للكثرة بعد الفضل ، وكلما كان الصحابة من السابقين قل اختلافهم فالخلاف عند الخلفاء الراشدين الأربعة قليل مع وجوده ، وكذلك من جاء بعدهم الخلاف بينهم قليل ثم يتسع ويتسع شيئًا فشيء ، وكلما تتبع الإنسان الدليل بقصد السلف فهو للمنهج أصوب وللرسول ﷺ أقرب ، والصحابة هم أقرب الناس للنبي ﷺ أقرب لمراده وقصده حتى في حال غيابه .

تأصيل مصطلح السلف

قال النبي ﷺ كما جاء عن عبد الله بن مسعود (قَالَ خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ)[٣] اتفقت الأئمة على فضل القرون الثلاثة وليس المراد فضل الأفراد ولكن فضل الجمهور وهناك من دل الدليل بفضله بعينه ، وأدنى الصحابة منزلة أفضل من أعلى التابعين منزلة ، ولكن لا نقول إن أدنى التابعين منزلة أفضل من أعلى أتباع التابعين منزلة !.

فالأدلة قد جاءت في كتاب الله ﷻ على فضل تلك الطبقة وميزتهم عن غيرهم ، وجمهور الصحابة هم في القرن الأول واختلف العلماء في المراد بالقرن أنه أقل من مائة سنة وهناك من يقول القرن مائة سنة ، فالصحابة قد ماتوا قبل نهاية القرن الأول ثم جاء جمهور التابعين فكانوا في الزمن الذي فيه صغار الصحابة وقد انتهى زمن جمهور الصحابة انقضى بانقضاء الخلفاء الأربعة وبقي أفرادهم ، لهذا نفرق بين عمل الصحابة في زمن الخلفاء وعمل الصحابة في زمن جمهور التابعين وكذلك نفرق بين زمن جمهور التابعين مع صغار الصحابة ومن بعدهم ولكن في أخر طبقة التابعين انتهى الزمن الفاضل وبقي الأمر دول من جهة التفاضل بحسب حالهم وذلك لأن الله بين فضل التابعين كما بين فضل الصحابة يقول الله ﷻ ﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ ﴿(التوبة :١٠٠) جاء في التفسير عن عكرمة مولى عبد الله بن عباس أنهم التابعون الذين تبعوا أصحاب النبي ﷺ ، وجاء عن قتادة أيضًا أنهم التابعون .

والتابعون يتفاضلون كذلك فيما بينهم كما كان يتفاضل الصحابة فيما بينهم فقد كان الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه يتفاضلون فيما بينهم كذلك فمن دونهم من باب أولى .

٣) رواه البخاري (٢٥٣٠) ومسلم (٤٧٠٦) من حديث عبد الله بن مسعود.

فالزمن والأسبقية هو فضلٌ قد دل عليه النص لكن ثمة قرائن أخرى منها قوة الدين والعلم ووفرة العمل فلها قرائن متعددة .

نجد أن التابعين يسمون الصحابة السلف الصالح وهم بالنسبة للتابعين سلف وبالنسبة لنا سلف ، فهل كل قرن يقول لمن سبقه سلف إلى قيام الساعة ؟ لا .. ولكن قد يقال تجوزًا لأن المتأخر سلك طريقة منهك السالفين فسمي بناء على طريقهم سلف ، فالأصل بالسلف أنهم القرون الثلاثة ولكن من جاء بعدهم من الأزمنة المتأخرة يقال أنه من السلف باعتبار أنه يتبع منهجهم لا باعتبار أنه مقصود بالأدلة الواردة في كلام الله تعالى ورسوله ﷺ في فضل أولئك الجيل من جهة زمانهم وجمهورهم وأعيانهم .

السلف في الصحابة والتابعين

يجمع العلماء على أن جميع الصحابة من السلف الصالح ، وأما التابعين فعامتهم من السلف الصالح لكن ليس جميع أفرادهم ; ولهذا يفرق العلماء بين خلاف الصحابة وخلاف التابعين ; لذلك لو جاء الإجماع عن صحابي صغير وجاء الخلاف عن تابعي أقدم عمرًا كالمخضرمين لم يعد خلاف التابعي المخضرم في مقابل إجماع الصحابي شيء ولو كان صغيرًا ; ولهذا يقول الإمام أحمد رحمه الله (الإجماع إجماع الصحابة) .

وقد وجد من أفراد التابعين من خالف السنة ظاهرًا والأدلة جاءت بفضل من سلك طريق النبي ﷺ والصحابة ، فالحق لا يمكن أن يخرج عن أصحاب النبي ﷺ ومعنى هذا أنه لا يمكن لأحد أن يأتي بسنة لم تكن عند أصحاب رسول الله ﷺ لأنه لا يمكن أن يعمل بها إلا عن طريق باب أوصله للنبي ﷺ فالصحابة هم الأبواب التي توصل إلى رسول الله ﷺ ، وكلما تأخر الزمن يمكن كلما هجوت تهجر السنن فلا يعمل بها أحد ولهذا يرسل الله تعالى من يجدد هذه السنن .

والصحابة أقرب الناس للنبي ﷺ من جهة المنزلة والاقتداء وأعلم الناس بمراده بسبر حاله من مجالستهم له ومخالطته ، فتجد الملوك والرؤساء حينما يتكلمون بكلام مجمل من يفهمه هم أقرب الناس لإدراك ما يرغب فيه فهم مستشاريه وخاصة أمره وهذا في الناس عامة فكيف فيمن دل الدليل على فضلهم في الكتاب والسنة على الاقتداء بهم وإتباعهم .

لهذا نجد أن الصحابة حينما يحملون بعض الأوامر على الاستحباب برغم أن الأصل في الأمر الوجوب ذلك لأنهم يعلمون من أمر النبي ﷺ هل يشدد في ذلك الباب أم لا يشد؟ وكذلك في النهي يريد به التحريم أم من باب الكراهة فربما فسر قول النبي ﷺ فعلٌ من أفعاله عرفها الصحابة فترجموه عملا وفتيا ولم يترجموها قولا.

لهذا يعظّم التابعون ما جاء عن الصحابة لأن لديهم فهم لمراد النبي ﷺ في النصوص العامة بين أيدي الناس جميعًا فقد يقول قائل نستنبط من السنة وما بين أيدينا ما نفهم! . نقول الصحابة هم أصح الناس لسانا بعد النبي ﷺ وجيلهم أصح الأجيال سليقة وفطرة وسلامةً للباطن ولهذا أصطفاهم الله لما ليس لدى غيرهم ; لهذا يقول الله تعالى ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ (النمل : ٥٩) جاء في التفسير عند ابن جرير الطبري عن عبد الله بن عباس قال : هم أصحاب رسول الله ﷺ .

أصطفاهم الله تعالى لنبيهﷺ ليقربوا منه ويكونوا أوعية حاملة لنهجه، والبدعة قد تقع في التابعين وربما يجهلونها ولهذا كل أمر أو نهي نلتمس فيه فعل أصحاب النبي ﷺ ليميز لنا الخطأ من الصواب وقد تقع البدعة في التابعين وربما يجهلونها ولهذا نرجع لعمل الصحابة وما كانوا عليهم لهذا من كبار فقهاء التابعين بعد نظره للدليل ينظر لفعل الصحابة فالأمر الإتباع فيه الامتثال والأمر منه الوجوب أو الاستحباب ، لكن تحديد الامر بدقة على مراد النبي ﷺ أن نميز المنهج بخطوات الصحابة وما ترجموه من أفعال في الأمر ، ولهذا ينظر التابع بعد الدليل لفعل الصحابة ليفسر قول النبي ﷺ ولهذا يقول إبراهيم النخعي وهو من أتباع التابعين وبعضهم يجعله من طبقة متأخرة من التابعين بأن رأى أصحابه ﷺ يقول (كل حديث لا يعمل به الصحابة لا أبالي أن أرمي به عرض الحائط) .

وهذا ليس استهانة بحديث النبي ﷺ ولكن ربما يكون هذا الحديث قد نسخ ولم ينقل نسخه أو كان عمل الصحابة على خلافه واستقر فبقي النص المنسوخ مضمر وحيا في زمن التابعين وهكذا ، وربما يقع الخطأ في النص من غلبة عاطفة الإنسان للتدين أو بالتمسك باللغة فيكون الحاسم هو منهج الصحابة ، فكل تابع لم يضع يده في يد صحابي ليصله برسول الله ﷺ فإنه ليس على سنةٍ يقينًا إلا من سلك هذا المسلك فيضع يده بأيدي أحد الصحابة لأن جمهور الصحابة لا يقعون في خطأ وإنما يكون الخطأ في أفراد المسائل لا في مجموعها وجمعها .

فضل الصحابة والتابعين

استفاض فضل الصحابة والتابعين في الكتاب والسنة كما في قول الله جل جلاله ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾(التوبة :١٠٠) وكذلك في قول النبي ﷺ كما في حديث ابن مسعود وعمران وأبي هريرة (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ)[٤] وكذلك ما جاء عنه ﷺ في حديث موسى الأشعري (النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ فَإِذَا ذَهَبَتْ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ)[٥] المراد بالأمان هنا هو عدم وجود الاضطراب عند ورود الخلاف ، لهذا يحسم الخلاف في الأمة مع وجود العلية من أصحاب النبي ﷺ ، فالنجوم إذا سقطت أمارة لقيام الساعة ؛ ولهذا وقع في الصحابة الخلاف بعد وفاة النبي ﷺ كما كان من المرتدين ثم اجتهد الصحابة لإعادة التمكين في الأمة والنصر فتوالت عليهم والفتوحات .

ولعل أول خلاف وقع بعد النبي ﷺ هو: هل مات محمد أم لم يموت ؟ وإن كان خلافًا يسيرًا ظهر ثم اختفى بالدليل ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ

٤) رواه البخاري (٢٥٣٠) ومسلم (٤٧٠٦) من حديث عبد الله بن مسعود.

٥) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة باب بيان أن بقاء النبي صلى الله عليه وسلم (٢٥٣١).

أَعْقَابِكُمْ ﴾(آل عمران : ١٤٤) فنزع الخلاف بالأدلة التي تلاها أبو بكر الصديق لكنه يعتبر خلاف ، وكل الخلاف في تلك الفترة من الدفن والإرث وغيرها كان ينزعها أبوبكر بما لديه من أدلة ثم يسلم الجميع لأسبقية أبي بكر الصديق وفهمه ; ولهذا سلم الصحابة لأبي بكر فكان النصر حليفهم والفتوحات ، فكيف لأمة أن تنتصر وهي لا تؤمن بأفضلية ذلك الجيل ! .

ومما يوجد في الخلاف الفتنة وعدم الأمن والخروج عن مراد الله إلى ربما حد البدعة والكفر، وقد جاء عن عبدالله بن مسعود لما مر برجال يسبحون على الحصى (فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ : مَا هَذَا الَّذِي أَرَاكُمْ تَصْنَعُونَ ؟ ، قَالُوا : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ حَصًا نَعُدُّ بِهِ التَّكْبِيرَ ، وَالتَّهْلِيلَ ، وَالتَّسْبِيحَ ، قَالَ : " فَعُدُّوا سَيِّئَاتِكُمْ ، فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِكُمْ شَيْءٌ ، وَيْحَكُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ، مَا أَسْرَعَ هَلَكَتَكُمْ ! هَؤُلَاءِ صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَوَافِرُونَ ، وَهَذِهِ ثِيَابُهُ لَمْ تَبْلَ ، وَآنِيَتُهُ لَمْ تُكْسَرْ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، إِنَّكُمْ لَعَلَى مِلَّةٍ هِيَ أَهْدَى مِنْ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ ، أَوْ مُفْتَتِحُو بَابِ ضَلَالَةٍ " ، قَالُوا : وَاللهِ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، مَا أَرَدْنَا إِلَّا الْخَيْرَ ، قَالَ : " وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ لِلْخَيْرِ لَنْ يُصِيبَهُ)[٦] فهذا إشارة من عبدالله بن مسعود إلى سرعان الوقوع في البدع حينما تخرج عن منهج الصحابة ولو كنت قريب في زمنهم ، ولهذا نشأت بدعة القدر وبدعة التشيع في زمن التابعين ومثل هذه البدع قال بها من قال ولم يعصمهم الزمن من ذلك ولكن حادوا عن الوصول لمحمد ﷺ من غير أصحابه وأصحابه ليسوا بمعصومين ، وهناك من يقول إنهم معصومون كحال الرافضة الذين يقولون بعصمة الأئمة الاثني عشر ، وكذلك الصوفية فيجعلون من المتأخرين أقطاب يتحكمون في الكون ، فنظروا لأسلافهم على أنهم سواء كحال المتقدمين ولديهم النصر ويستنبطوا ويفهموا كما يفهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم !.

وهناك أقوام يقربون من هؤلاء وأقوام يبعدون من هؤلاء وأهل الحق في ذلك هم الوسط وهم من قالوا بأفضلية الصحابة دون عصمة وأنهم أفضل القرون وأقربهم وأزكاهم .

٦) رواه الدارمي في سننه (٦٨/١ ـ ٦٩).

ولهذا جاء في حديث (الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ بَعْدِي عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ")[٧] يرشد الصحابة لسنته ولسنة الصحابة وهو بينهم فكيف بمن دونهم ممن جاء بعدهم ولم يدركهم عبر القرون الممتدة الطويلة !.

فيجب على الأمة كلما تأخرت أن تستمسك بمنهجالسلف استمساك أشد ; فمع أن الصحابة هم أصحاب فضل وأصحاب ديانة وسبق ومع ذلك أرجعهم ﷺ لمن سبقهم وهكذا كل أمة ترجع لأولئك الجيل لتصوب منهجها ويسلم لها الطريق .

خصائص وخصال الصحابة

امتاز الصحابة بجملة من الميزات منها ميزات قدرية لا توجد في غيرهم مما لا يمكن أن يتحقق في الزمن المتأخر ومن هذه الفضائل القدرية :

الخصلة الاولى : الفضل الزماني فهو فضلٌ قدري للصحابة بمشاهدة النبي ﷺ ومجالسته فلا يمكن لأحد أن يذهب ليجالس النبي ﷺ ويحضر الغزوات ويقوم بنصرته ، ولهذا يقول الله جلاله ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ (النمل : ٥٩) وقد جاء في تفسير هم أصحابه فأعظم خصلة خصهم الله جلاله بها هي الأسبقية الزمنية التي كانت سببًا في إدراكهم لحال النبي ﷺ وسبر حاله فعرفوا ما يحب وما يكره وما يغضبه وما يرضيه فهناك مجالس يهجرها النبي دون قول فهم يعرفون مقايس الشدة واللين ويترجموها بالأفعال والفتيا .

ومن ظن أن جميع السنة منصوصة من قوله ﷺ فقد أخطأ فثمة أشياء من فعله وثمة أشياء من تقريره وأدرى الناس بحاله وفعله وتقريره هم الصحابة فهم أكثرهم سبرًا لحاله في مكة وفي المدينة وهم على

٧) رواه أبو داود (٤٦٠٧) ، والترمذي (٢٦٧٦) ، وابن ماجه (٤٢) .

تفاضل فيما بينهم فمنهم من أدرك أول المدينة ومنهم من أدرك أخرها ومنهم من رأى النبي ﷺ مرة واحدة فيشتركون في الصحبة ولكن من جهة الفضل يتباينون فيرجع لأعلاهم في الصحبة منزلةً .

الخصلة الثانية : هي ما فطرهم الله ﷻ عليه من سلامة اللسان والسليقة اللغوية فالصحابة مُكّنوا من سلامة اللغة فكتب التفسير عند المتأخرين كشرح البخاري ومسلم لا يحتاجها الصحابة لأنهم يدركون مراد النبي ﷺ ولهذا الخلاف عندهم قليل قال علي بن أبي طالب (العلم نقطة كبّرها الجهال) كبرها الجهال بالخلاف فلم تدخل في الصحابة العجمة كما دخلت في التابعين وتابعي التابعين ثم توسعت ، فكان الصدر الأول يتكلم العربية سليقة كما قال الشافعي عن الإمام مالك رحمهما الله أنه كان يتكلم اللغة العربية سليقة من غير أن يخرم فيها شيئًا ؛ وهذا ليس موجود لدى المتأخرين كما كان في الصحابة عليهم رضوان الله تعالى .

والتفسير اللغوي المجرد يشترك معه جملة من المعاني ربما لم تقصدها الشريعة ، وربما كان الخطأ في داخل الصحابة فيمن يفسر شيء بلسانه العربي وثمة لغة من الطائف ولغة في المدينة ولهجات العرب كثيرة وإن كانت لها عربية لكن القرآن يريد أحد المعاني المتسعة ؛ ولهذا جاء في الصحيح (عَنْ الشَّعْبِيِّ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ (حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنْ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنْ الْفَجْرِ) قَالَ لَهُ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَجْعَلُ تَحْتَ وِسَادَتِي عِقَالَيْنِ عِقَالًا أَبْيَضَ وَعِقَالًا أَسْوَدَ أَعْرِفُ اللَّيْلَ مِنْ النَّهَارِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِنَّ وِسَادَتَكَ لَعَرِيضٌ إِنَّمَا هُوَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ)[٨] فتفسيره اللغوي صحيح ولكن تفسيره الوضعي خطأ فحاتم يدرك جمهور لغة القرآن لكن ربما تند عنه بعض الألفاظ وهكذا كلما اتسعت رقعة الجيل تباين اللسان واللهجات وهذا في جيل الصحابة فكيف بالأجيال المتأخرة !.

وقد اختلف الصحابة في تفسير قول الله جل جلاله ﴿ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا ﴾(النساء : ٤٣) اختلف بعض الصحابة على معنيين في أمر اللمس : المعنى الأول الجماع والمعنى الثاني الملامسة ، قد جاء في التفسير (حدثنا سعيد عن قتادة عن عكرمة وسعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح وعبيد بن

٨) رواه البخاري برقم (١٩١٦،٤٥٠٩) وصحيح مسلم برقم (١٠٩٠).

عمير : اختلفوا في الملامسة فقال سعيد بن جبير وعطاء : الملامسة ما دون الجماع وقال عبيد : هو النكاح فخرج عليهم ابن عباس فسألوه فقال أخطأ المولیان وأصاب العربي الملامسة النكاح) [٩] .

يريد بذلك أن الفصاحة لها أثر في الفهم لهذا أخطاء العقائد تنشأ من العجمة وربما تكون بحسن قصد وما من بدعة نشأت إلا ووقعت من أعجمي بأن نظر للمعنى العام فحمله لمعاني الشعر أو القواميس أو مصطلحات البلد وهذا كما وقع مع عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ رضي الله عنه في باب ضيق في الخيط الابيض والخيط الأسود فكيف في مسائل الإيمان والكفر في الزمن المتأخر ، فيتسع الخطأ لهذا لابد من الرجوع لأصحاب النبي ﷺ أصحاب اللسان .

الخصلة الثالثة : الطهارة القلبية والذكاء ففي الصحابة من الذكاء والطهارة والصديقية والولاية ما ليس في غيرهم وبها فضلوا على من بعدهم فخصائصهم وخصالهم عظيمة جدًا لا تتحقق في غيرهم وإن لم يتحقق أكثرها لم يتحقق بعضها .

الفرقة الناجية والفرق المتوعدة بالعذاب

قال النبي ﷺ كما جاء في حديث أبي هريرة (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : تَفَرَّقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، وَالنَّصَارَى مِثْلُ ذَلِكَ ، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً)[١٠] وفي رواية (كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً قَالُوا : وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي)[١١] يعني أن الحق لا يمكن أن يخرج عن سبيله وأصحابه ﷺ ، والفرقة التي تكون في الأمة سببها الاختلاف على ذلك المنهج .

---

[٩]) روى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أن عبيد بن عمير وسعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح اخْتَلَفُوا في الْمُلامَسَة .

١٠) رواه التّرمذي (رقم ٢٦٤٠)، وأبو داود (رقم ٤٥٩٦) في سننه ومن طريقه البيهقي في السّنن الكبرى ٢٠٨/١٠ رقم (٢٠٩٠١)،وابن ماجه في سننه (رقم ٣٩٩١)، وابن حبّان في صحيحهِ ١٤٠/١٤ رقم (٦٢٤٧) وفي ١٢٥/١٥ رقم (٦٧٣١)، والحاكم في المستدرك (رقم ١٠ و٤٤١ و٤٤٢)، وأحمد ١٢٤/١٤ رقم (٨٣٩٦) وأبو يعلى ٣١٧/١٠ رقم (٥٩١٠) وفي ٥٠٢/١٠ رقم (٦١١٧) في مسنديهما، وابن أبي عاصم (رقم ٦٧) والمرْوَزي (رقم ٥٨) كِلاهما في كتاب السنّة له، والآجري في الشّريعة (رقم ٢١ و٢٢)، وابن بطّة في الإبانة الكبرى ٣٧٤/١ (رقم ٢٧٣)، وعبد القاهر الجرجاني في الفَرق بين الفِرق (ص٤)..
كلّهُم من طُرُقٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى أَوْ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفَرَّقَتِ النَّصَارَى عَلَى إِحْدَى أَوْ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً."

١١) رواه التّرمذي (رقم ٢٦٤١) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما ، وقال : هذا حديث مفسر غريب لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه ، قال الحافظ العراقي في المغني (٣/٢٨٤): أخرجه من حديث عبدالله بن عمرو وحسنه ، ولأبي داود من حديث معاوية وابن ماجه من حديث أنس وعوف ابن مالك (وهي الجماعة) وأسانيدها حياد ، وحسنه الألباني في (صحيح سنن الترمذي). .

لذلك خط النبي خط وخط حوله خطوطا كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود (قَالَ : خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا خَطًّا، وَخَطَّ عَنْ يَمِينِهِ خَطًّا، وَخَطَّ عَنْ يَسَارِهِ خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ ، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا فَقَالَ:هَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ ،وَقَرَأَ(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ))[١٢]، فالخطأ إما أن يكون في التأويل أو في صحة النص وضعفه وفي عمل النبي ﷺ وقوله ومنه ما هو منسوخ أو تركه النبي ﷺ وعمل بخلافه ، ولهذا قال (مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي)[١٣].

والفرقة الناجية هي التي أخبر النبي ﷺ كما جاء في الحديث (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ)[١٤] جاء من حديث معاوية وجابر وثوبان وكلها في الصحيح تدل على وجود فرقة ظاهرة مما يدل على وجود أناس من الأمة يعنى من الأمة منها جماعة ظاهرة ، وأما بقية الفرق من البدع قد توعدت بالنار لكنها ليست من أهل الكفر ، وبعدها عن الحق على مراتب فمنها ما وافق السلف الصالح في العشر أو الخمس بالمائة أو أقل أو أكثر للنصف والثلث ; فالطوائف تختلف في درجة المخالفة فالإرجاء على مراتب والخوارج على مراتب والجامية على مراتب والرافضة والشيعة على مراتب ، والسلف الصالح أقرب للحق يتقاطعون معهم فيما أصابوا فيه الحق مع هذا الخط مع السلف والصحابة ، وأما ما اختلفوا فيه هو الحيدة لعجمة أو لتأويل النص أو أخذوا بالضعيف ، ولهذا لا يوصفون بأنهم على منهج السلف والسبب أن أكثر مخالفتهم في الأصول أو في جمهور المسائل لكن من تابع الصحابة وأخطأ في المسألة والمسألتين بخطأ تطبيقي لا تأصيلي فلا يخرج من السلف ولا عن منهج الصحابة وتغفر زلته بإذن الله ما لم تكن في الأصول .

١٢) رواه أحمد (١/٤٣٥) (٤١٤٢) ، والدارمي (١/٢٣٢)(٢٠٨) والنسائي في سننه الكبرى (٦/٣٤٣)(١١١٧٤).
١٣) رواه التِّرمذي (رقم ٢٦٤١) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما ، وقال : هذا حديث مفسر غريب لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه ، قال الحافظ العراقي في المغني (٣/٢٨٤): أخرجه من حديث عبدالله بن عمرو وحسنه ، ولأبي داود من حديث معاوية وابن ماجه من حديث أنس وعوف ابن مالك (وهي الجماعة) وأسانيدها حياد ، وحسنه الألباني في (صحيح سنن الترمذي).
١٤) رواه مسلم في صحيحه ١٥٢٣/٣، كتاب الإمارة، بَاب قَوْلِهِ صلى الله عليه وسلم: "لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ"، الحديث رقم ١٩٢٠.

الفرق بين التأصيل والتطبيق

ثمة تأصيل وثمة تطبيق وتنزيل ولابد أن نفرق بينهما فقد يكون الإنسان لديه تأصيل صحيح ولكن يخطأ في تطبيقه ، ولكن الأصل أن الإنسان إذا أخطأ في التأصيل يخطأ في التطبيق ولكن إذا أصاب في التأصيل قد يخطأ في التطبيق في مناسبة الزمان وتحديد العين ؛ ولهذا يدرك أسامه بن زيد أن المسلم لا يُقتل وإنما من جهة الحقيقة قتل مسلم ، وكذلك خالد بن الوليد في قتله للأسرى وأمر من معه أن يقتل أسيره ، جاء عن النبي ﷺ (اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ)[١٥] فلم يتعمد خالد بن الوليد قتل المسلم ولكن ظن أن هؤلاء ليسوا بمعصومين وأن دماءهم من الدماء غير المعصومة والأصل عنده صحيح ولكن تطبيقه وقع في ذلك الخطأ وهذا وقع من أصحاب النبي ﷺ .

لهذا لابد من التفريق بين المدرسة التأصيلية والمدرسة التطبيقية فربما يقع عند بعض الطوائف خطأ في التطبيق مع أن تأصيلهم صحيح أنهم ينزلون نص على طائفة لا ينزل عليهم ولكن الأصل صحيح فأخطأوا في الموضع فأنزلوا النص على جماعة أو فرد أو حادثة فلا ينسب خطأ التطبيق للتأصيل ولكن ينسب لأصحاب هذه الأخطاء وهذا حدث في الصحابة فمن باب أولى فيمن دونهم لهذا ينسب الخطأ للأفراد الذين وقعوا فيه ولا ينسب للتأصيل لأن الخطأ خطأ اجتهاد وتطبيق وتنزيل وليس خطأ تأصيل يتباين من زمن لزمن ومن جماعة لجماعة .

[١٥]) رواه البخاري كتاب المغازي ص ٤٨ من جزئه الثالث حديث خالد مع بني جذيمة وقتله إياهم ، وأخرجه أيضا الإمام أحمد من حديث عبدالله بن عمر في مسنده.

ضرب التأصيل بأخطاء التطبيق

ثمة مدرسة يتبناها بعض مرضى القلوب الذين يحاولون أن يربطون أخطاء التطبيق ليضربوا بها التأصيل وضرب الأصول لو ربطت بأخطاء التطبيق لما سلم منهج ، والتاريخ شاهد في كل قرن من القرون على أن منهج السلف أقل القرون خطأ في التطبيق ولكن ثمة متربصون ليضربوا المنهاج فمنهج السلف الصالح هو أنقى المناهج لقربه من النبي ﷺ وعنايته بصحة الأدلة وتجليتها وعدم تعصبهم لأحد كما في الأزمنة المتأخرة يتعصبون للعلماء والوجهاء والسادة لمطامع وإنما الصحابة كانوا يلتفتون للنبي ﷺ وما كان عليه ، لهذا يراد أن يضرب ذلك التأصيل ولهذا من نظر للمنهج الأصلي عند السلف يجد أنهم يقطعون الطريق على أصحاب الشهوات والنزوات .

وقد يوجد في أتباع السلف الصالح من يخطأ في تطبيقه لكن لا ينبغي أن نضرب به التأصيل وإنما هو منهج أهل البدع والبغي من المتربصين بالأخطاء فينشطون في زمن الخطأ ليضربوا الأصول .

ثم أيضًا ثمة طوائف تتدعي الانتساب للسلف الصالح والسلف الصالح منهم براء ممن يتمسح بالأدلة والنقاء والصفاء ودواعيهم في ذلك شهوات أو نزوات أو حظ دنيا أو مصلحة من جاه ومال والسلف منهم براء وإن انتزعوا حديث من سياقه أو تعصبوا لدليل وبالغوا فيه لكن أهل الحق يتصدون لهم فيبينون شبهاتهم ويفندونها ويردوها عليهم .

الفرق بين مدرسة الإصلاح ومدرسة التربص بالأخطاء

ثمة فرق بين مدرسة الإصلاح ومدرسة التربص بالأخطاء فالأخيرة قائمة على ضرب التأصيل بالأخطاء كما تضرب الصلاة بأخطاء المصلّين وتضرب الزكاة بأخطاء المزكين ومن أخطاء المجاهدين تُضرب شعيرة الجهاد ، وهذا يعرفه أهل العلم ولكن بسبب خلط وسائل الإعلام يجعل كثير من أهل الحق إعياء في كيفية الفصل بين المدرستين فلا يفهم!.

وهذا من دقائق الأمور فيجب على المصلح أن يضع القول في موضعه ليفوت الطريق على المتربصين من أهل الغفلة وأهل السذاجة وأهل الطمع وغيرهم .

وكون الإنسان لا يرى إلا الأخطاء بعيدًا عن صحة الأصول فهذا لا يريد إلا ضرب الأصل ; ولهذا من أخطاء بعض المنتسبين للإصلاح مداومة نقد الخطأ وذم المخطئين دون بيان لجوانب التأصيل ومدح الفاعلين فيفهم الناس أن هذه المدرسة مدرسة أخطاء ليس إلا ولا يوجد بها إصابة للحق !.

لهذا يجب على المصلح إذا أراد النقد أن يحمي التأصيل بالدليل فيبين فضل التأصيل ثم يبين جانب المصيب وثوابه ثم يبين جانب الخطأ وأثره لا أن يظل على نقد الخطأ متجردًا عن الأصل والصواب فيدخل المتربصون بأخطاء التطبيق من المنتسبين لهدم التأصيل بالكلية .

والانتساب لمنهج السلف كبير جدًا وينبغي عدم نسبة مثل هذه الأفعال لمنهج السلف مع حفظ فضل منهج السلف وبيان من كان على الحق وفضله ومنزلته لنحمي الأصل والمصيبين حتى لا يدخل الخلط في أذهان الناس .